الكتابات في المساجد العُمانية القديمة

إعداد
د . إيروس بلديسيرا
أستاذ الأدب العربي بجامعة البندقية - إيطاليا

الطبعة الثانية
١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

حضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم

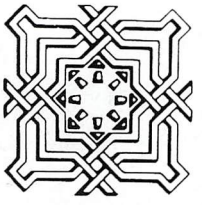

الإهداء

إلى سلطنة عُمان
التي أحبتها آثارًا وأدبًا وشعبًا

تـــقـديـــم

في السنة الثامنة للهجرة كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى جيفر وعبد ابني الجلندى الأزديين بعُمان وبعث عمرو بن العاص بن وائل السهمي بكتابه إليهما يدعوهما إلى الاسلام وقد أسلم أهل عُمان وحسن اسلامهم وشاركوا في الفتوحات الإسلامية الكبرى وخرجوا للدعوة إلى الإسلام في بقاع عديدة من العالم فكان لهم الفضل الكبير في اسلام عدد من شعوب الأرض .

وإيمانا من وزارة التراث القومي والثقافة بأهمية توثيق ما خلفته الأجيال العُمانية الماضية من ارث حضاري كبير أولت الوزارة المساجد الأثرية أهمية خاصة من أجل اعداد البحوث والدراسات الحضارية عنها وترميم هذه المساجد التاريخية لجعلها بيوتاً صالحة للعبادة والحفاظ عليها كمآثر تاريخية .

وبمناسبة عام التراث العماني الذي تفضل حضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم بتخصيصه من أجل الحفاظ على التراث العماني يسرني ان أقدم هذا الكتاب بين يدي القارىء الكريم كثمرة من ثمار جهد الوزارة في مجال سعيها لتوثيق التراث الحضاري العُماني ، كما أود أن اتقدم بجزيل الشكر للدكتور ايروس بلديسيرا أستاذ الأدب العربي بجامعة البندقية بإيطاليا على الجهود التي بذلها في اعداد هذا البحث القيم والذي نعده اضافة جديدة إلى المكتبة العمانية والمكتبة العالمية موقنين بأن هذه الدراسة ستعود بالنفع على المهتمين بالدراسات الحضارية عن المساجد القديمة في عمان .

ومن الله التوفيق والسداد ، ، ،

فيصل بن علي بن فيصل آل سعيد

وزير التراث القومي والثقافة

٣/٤/١٩٩٤م

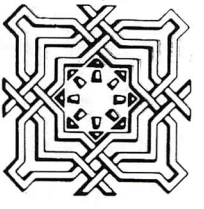

تمهيـــــــد

■ جمع الباحث الإيطالي الدكتور «باولو كوستا» ، الذي عمل كمستشار للآثار بوزارة التراث القومي والثقافة سابقا ، خلال إقامته الطويلة في السلطنة ، العديد من الوثائق والمعلومات التقنية والفنية والصور الفوتوغرافية عن عدد كبير من هذه المساجد القديمة بهدف اعداد لائحة لهذه الأبنية المباركة ، وبناء على اقتراح منه ، شاءت الوزارة أن تدعوني لزيارة السلطنة لأهتم بجمع الكتابات الموجودة في هذه المساجد القديمة ودراستها .

وقد قمت بعدة زيارات للسلطنة مفيدة ومثمرة ، تمّت الزيارة الأولى خلال الأشهر الثلاثة الأولى من سنة ١٩٨٦ لاجراء البحث المذكور ، تبعتها زيارة اخرى وجيزة سنة ١٩٨٨ لاستكماله ، واخيرا زيارة ثالثة خلال فصل الخريف سنة ١٩٩٣م لتأليف كتاب عن نتائج هذا البحث ■

مقدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر واقام الصلوة وآتى الزكوة ولم يخش إلا الله﴾ .

منذ نزل الوحي على النبي ﷺ واتساع الفتوحات الاسلامية المظفّرة في كافة أرجاء المعمورة ، كانت الحاجة إلى أماكن للعبادة يؤمها المؤمنون لعبادة ربهم . وكانت أول صلاة لهم في بيت النبي الذي تحوّل لاحقا إلى (مسجد النبي) في المدينة المنورة .

وقد بارك الإسلام أرض عُمان سنة ٦٣٠م على يد القائد عمرو بن العاص كما بارك غيرها [١] ، فانتشرت المساجد في كل أنحائها ، حتى لم يبق هناك من قرية أو حي في مدينة إلا وقام فيه مسجد ، صغير أو كبير ، يستقطب حياة الجماعة الروحية منها والاجتماعية . وأصبح بناء مسجد من أهم دلائل التقوى وفعل التدين يمجّد به القائم عظمة خالقة وخلوده .

---

(١) انتشر الإسلام في البلاد تدريجيا في عهد الرسول محمد ﷺ وقد منح الخليفة أبو بكر أهل عُمان توزيع زكاتهم على فقراء عُمان بدلا من إرسالها إلى بيت المال بالمدينة . أنظر J.C WILKINSON, «The Julanda of Oman», The Journal of Oman Studies, Ministry of National Heritage and Culture, Sultanate of Oman, (1975), p.100 ff. and L. Caetani, Annali dell'Islam, Hildesheim-New Nyork 1972, II, pp. 776-9
وفي منتصف القرن الاول الهجري قامت الحركة الإباضية وكان زعماؤها عبدالله بن يحيى المعروف بطالب الحق وابو بلال مرداس وجابر بن زيد الأزدي وعبدالله بن أباض وفي اواخرالقرن الأول الهجري كان المذهب الإباضي منتشرا في عمان التي أصبحت اهم المراكز الروحية للإباضية مع انتقال العلماء الإباضيين من البصرة إلى عمان في أواخر القرن الثاني الهجري حتى قيل : ان العلم باض بالمدينة وفرخ بالبصرة وطار إلى عُمان ، انظر من منشورات وزارة التراث القومي والثقافة ، سيدة إسماعيل كاشف ، (عمان في فجر الإسلام) مسقط ١٩٨٢ ، من ص ١٩ وعامر بن عمير المرهوبي، (عمان قبل وبعد الإسلام) مسقط ١٩٨٠م ، من ص ٢٢ ، محمد رشيد العقيلي (الإباضية في عمان وعلاقاتها مع الدولة العباسية في عصرها الاول) مسقط ١٩٨٤ ، ص ٣ ، وعوض محمد خليفات (الأصول التاريخية للفرقة الإباضية) ، مسقط د.ت ، ص ٥ ـ ٦ ، ونور الدين عبدالله بن حميد السالمي (اللمعة المرضية من أشعة الإباضية) مسقط ١٩٨٣ ، من ص ٦ وعما قيل حول الإباضية قديما وحديثا علي يحيى معمر ، (الإباضية بين الفرق الإسلامية عند كتاب المقالات في القديم والحديث ، مسقط ١٩٩٢ ، ومن المصادر الغربية نذكر T.LEWICKI, «al-Ibadiyy» in Encylobe´die de l'Islam, Leyde-Paris, 1975, الجدير بالذكر أن كتب بعض الباحثين الايطاليين عن الموضوع منهم L. CAETANI, «Annali dell'Islam», Hilesheim - New York 1972, II pp. 206-209; L. VECCIA VAGLIERI, «L'Ima¯mato iba¯dita dell'Oma–n», pp. - and M.M. MORENO, «Note di teologia iba¯dita», pp. - 299-313, both in «Sritti in onore di Francesco Beguinot per il suo 70° compleanno», «Annali dell'l. U.O. Napoli», n.s. 3(1949).

أما هذه المساجد فكانت متقشفة المظهر خالية من كل زخرف ، بحسب ما أوصى به المذهب الإباضي الذي انتشر في عُمان في القرن الأول للهجرة ، والتي أوصت بالتقشف ونهت عن الزخرف الخارجي ، فكان المسجد النموذجي إذاً ، عبارة عن بناء من (صاروج) بسيط الهندسة (الشكل رقم ١) ، والصاروج مادة كانت تستعمل حتى عشرات السنين خلت في البناء التقليدي ، في هذه البقعة الجميلة من الأرض .

ونظرا لسهولة تفتّت هذه المادة ، صمد وللأسف القليل من هذه الأبنية المقدسة ، ولولا مشيئته تعالى وتقوى الشعب العماني ووفاؤه لها لما صمد منها شيء .

وهذا القليل القيّم المعبّر ، هو دليل الباحث في السلطنة عن ماضي أهلها العريق ، نجده في مناطق السلطنة ، مساجد أغلبها بسيط ، قامت لعبادة الله عز وجل ، مساجد بعضها مهجور وبعضها يكاد ـ لولا سجادة صغيرة قرب محاربها تشهد أن هناك من يؤمها بعد للصلاة ـ وبعضها ما زال يستخدم .

وكأني بها دليل ، شيخ جليل ، يعشق ارضه ويعبد ربه ، يجلس على صخرة عند كتف الوديان ينظر إلى البعيد ، متكئا على عصاه ، أو يبكي على اطلال مدينة هجرها احبّاؤه إلى مدينة مجاورة أينع شبابا وحداثة ، أو يستقبل ويودع كعادته من يؤمه للصلاة ، بين صاروج المباني الآهلة ، في مدن آهلة ، هذا الدليل الجليل أقل وحشة هنا دون شك .

الداخل إلى هذه المساجد القديمة ـ وبومتها هي حارسها المتحفظ (الشكل رقم ٢) ، تأخذ منه الدهشة مأخذها إن عثر فيها على محراب من تلك المحاريب الرائعة الغنية بالزخارف والنقوش الدقيقة والكتابات المستوحاة من الكتاب الكريم في معظم الأحيان ، أو من اخبار من بناها وصممها وتعهد بناءها كما هو في (نزوى) و(منح) أغنى مدينتين في هذا المجال ، فبساطة المسجد جملة في تناقض واضح وجميل مع زخرف المحراب ولا يقتصر وجود المحاريب على المدن الآهلة العامرة ، بل

يتعداها إلى مناطق نائية تقريبا كمحراب مسجد قرية (مقزّح) بين جبال ولاية (إزكي) .

وتشهد دقة تصميم هذه المحاريب على كفاءة الحرفيين الذين شُهِد لهم بمهارتهم التقنية والفنية العالية ، وان عبّرت فإنما تعبّر عن وفاء الشعب العماني الذي أشاد بناءها ، لتشهد على إيمانه على مرّ الأجيال .

أما المادة المستعملة في إنجاز هذه المحاريب فهي (الجص) الذي برع العرب في الاشتغال به منذ العصر الأموي وابدعوا فيه خلال العصر العباسي حيث أخذت هذه التقنية أهميّة كبيرة ، وعرفت شيوعا واسعاً في مجال الزخرفة الهندسية .

وقد ساهمت منطقة (نزوى) بالقسط الأوفر من الغلّة ، إذ وجدنا فيها خمسة مساجد ، في كل منها محراب عليه كتابة ، كما وجدنا في حارة (سعال) من هذه المدينة (المسجد الجامع) ، أهمّ هذه المساجد واقدمها على الاطلاق ، يشمخ ببرجه الجميل ومحرابه الرائع الذي يرجع إلى سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م .

و(منح) أيضا ذات أهمية كبيرة ، ففي الجزء القديم من هذه المدينة ، توجد اربعة مساجد ما زالت مستعملة ، ولكل منها محراب عليه كتابة ، ولعل اهم ما يطالعنا فيها من الناحية الفنية ، اسماء اعلام مدرسة للنقش قامت فيها في القرن العاشر للهجرة ، نراها تتردد على اكثر من محراب في هذه المنطقة ، كأسماء (عبدالله بن قاسم بن محمد الهميمي) المنحي ، صاحب خمسة من المحاريب التي درسناها ، كمحراب مسجد (بهلا) الكبير (٩١٧هـ/١٥١١م) و(مسجد الشرجة) في (نزوى) (٩٢٤هـ/١٥١٨م) ، و(مُشْمِل) المنحي عامل محراب مسجد (الغريض) (٩٢٣هـ/١٥١٧م) و(مسجد المكبّرة) في محلة (الغريض) أيضا قرب (نخل) ، ومشمل هذا ، كما يبدو ، هو ذاته والد (طالب) عامل محراب المسجد الجامع في (نخل) (٩٩٤هـ/١٥٨٦م) و(مسجد المزارعة) (٩٧٤هـ/١٥٦٦م) و(مسجد الصاروج) (٩٧٠هـ/١٥٦٢م او ٩٩٠هـ/١٥٨٢م) في (سمائل) و(مسجد العوينة) في (وادي بني خالد) (القرن العاشر) ويبدو انه جد (علي بن طالب بن مشمل) ايضا ، عامل محراب (المسجد الجامع) في قرية (مقزّح)

(١٠٢٩هـ/١٦٢٠م) .

تناول بحثنا هذا واحدا وعشرين محرابا ، انجز منها اربعة عشر محرابا في القرن العاشر الهجري . واول هذه المحاريب التي تناولها بحثنا هو محراب (المسجد الجامع) في حارة (سعال) في (نزوى) الذي يعود تصميمه إلى سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م ، كما اسلف القول ، وآخرها محراب (مسجد الاغبري) في (سمائل) ويعود إلى سنة ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م . زدنا على ذلك تقديم كتابة في مكان الوضوء لـ (مسجد السوق) في (نخل) .

اذا تأملنا في ما سبق نخلص إلى القول : أن القرن الأغزر انتاجا بالمحاريب ، هو دون شك ، القرن العاشر للهجرة ، وهو القرن الذي حقق فيه (المنحيّان) - ونقصد بهما الهميمي ومشمل - اعمالهما وظهر اسمهما على اكثر من نصف ما درسناه من محاريب .

ومن هنا تأتي اهمية هذين النقّاشين واهمية (منح) مدينتهما ، والمدرسة التي كانا على رأسها وعرفت بعدهما (طالب بن مشمل) وابنه علي .

فللمشملين والهميمي شكر خاص ممّن يقدّرون هذا الفن ، ومن ابناء السلطنة الذين يعتزون بدينهم وتراثهم عرفان جميل خالص خاص .

وعرفانا بالجميل . . . أود بادىء ذي بدء أن اتوجه بالشكر إلى وزارة التراث القومي والثقافة ممثلة في صاحب السمو السيد فيصل بن علي بن فيصل آل سعيد وزير التراث القومي والثقافة الذي اتاح لي فرصة الاقامة في السلطنة وهيّأ لها كل ظروف النجاح .

كما اخصّ بالذكر سعادة مستشار الوزارة مال الله بن علي بن حبيب وسعادة سالم بن اسماعيل بن سويد وكيل الوزارة للشؤون الثقافية وسفير السلطنة في روما سابقا ، على دعمهما الثمين الذي خصّاني به ،

وإلى الفاضل الشيخ محمود بن زاهر الهنائي مستشار الوزير للشؤون الفنية ومدير عام التراث سابقا والفاضل محمد بن سعيد الوهيبي مدير عام التراث على نصائحهما والدكتور الفاضل علي بن احمد بن بخيت الشنفري مدير دائرة الآثار للمواد والوسائل التي أمدني بها .

ولا يفوتني هنا وقبل أن اختتم كلمتي هذه أن أنوه بكل عماني التقيته أو قابلته مما كان له بالغ الأثر في نفسي حيث احاطوني جميعا بلطفهم وعطفهم وكرمهم مما يسّر عليّ هذه الدراسة .

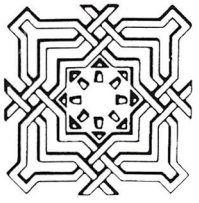

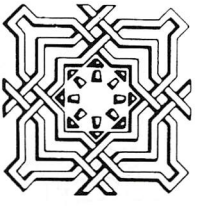

لائحة المصطلحات المستعملة

إكليل : التاج الذي يزّين جزء المحراب الأعلى .
بومة : قبّة صغيرة فوق سطح المسجد ، يُخرج منها لإصلاحه .
تجويف : أعمق جزء واخفضه في قلب المحراب .
جوف : حفرة مزخرفة بالخزف الصيني .
ختم : شكل دائري منقوش ومزخرف يتردد في عدد من زخارف إطارات المحاريب .
صاروج : المادة الأوّلية المستعملة في الأبنية التقليدية .
طاقة : شكل هندسي منقوش بشكل نافذة في تجويف المحراب .
مفصَّص : متعدّد الأفلاق كأفصاص برتقالة .

تنظيم العمل

نظمنا هذه الدراسة بدءا من مساجد المنطقة الداخلية : نزوى وبهلا ومنح وأدم ومقزح وسمائل ، ثم مساجد منطقة نخل واخيرا مساجد المنطقتين الوسطى والشرقية : سناو والقابل ووادي بني خالد .

ومن الملاحظ انه في تقديم الكتابات التالية سنشير إلى كل الحروف الموجودة في الكتابات الأصلية صحيحة كانت ام لا . كما سنشير إلى كل دلائل الحركات الموجودة فيها ، صحيحة أم لا . وكذلك الدلائل كالهمزة والسكون والشدة .

وسنستعمل القوسين المربعين للاشارة إلى الأجزاء الناقصة أو الأجزاء المضافة لتسهيل الفهم والقوسين العاديين للإشارة إلى الحروف الموجودة التي لا حاجة إليها .

(الشكل رقم ١) مسجد إباضي وبرمته في ضواحي مسقط.

نـــــزوى

سعال ـ المسجد الجامع

إذا انحرفنا يميناً فور وصولنا إلى (نزوى) من العاصمة ، وقبل عبور ميدان الوادي الأبيض الذي يقودنا إلى السوق ووسط المدينة ، ندخل حي (سعال) القديم ، بمساكنه المبنيّة من صاروج والآهلة كلها ، نصل منه صعودا عبر أزقة ضيّقة إلى ساحة يهيمن عليها بناء المسجد الجامع ، واحد من أقدم مساجد السلطنة وأهمها (الشكل رقم ٣) .

إذا تأملنا هذا المسجد من الخارج طالعنا بنايته الضخمة فيها برجِ شامخ وأبواب من الخشب الخالص ، وبناء صغير لوضوء المؤمنين قُبَيْل صلاتهم المشتركة .

فإذا ما دخلنا المسجد وقفنا مشدوهين أمام محرابه الرائع ، الذي يشهد على مهارة صانعيه ومصمّميه وعلى مستواهم الفني والتقني العالي (الشكل رقم ٤) . فنحن أمام واحدة من أعلى الانجازات مستوى وفنًا ، تشهد دون أيّما شك على خبرة جصّاصيّي القرن السابع للهجرة الاتقياء وبراعتهم في ترويض الجص وفن نقشه ، مهارة لم يرق إليها اي اثر آخر من إرث السلطنة المحفوظ في هذه المنطقة إلى يومنا هذا ، كما لم يرق إلينا من هذه المحاريب أقدم منه ، فهو دونما شك أقدم محاريب المنطقة وربما أقدم محاريب السلطنة على الاطلاق .

حالة المحراب العامة لابأس بها ، رغم التلف الذي لحق بملاط أطراف الجدران من جرّاء السنين وأعمال الترميم غير المتقنة ، هذا التلف لحق أيضا بأجزاء المحراب السفلى وخاصة في داخل التجويف ، فاستحال معه قراءة السطرين اللذين في أسفله ، بينما لم يلحق ـ أي ضرر يذكر والحمد لله ـ بالكتابة الكبيرة والمهمة ، التي على جانبي المحراب ذات الحروف الكوفية الزهرية المزخرفة الأنيقة وفيها جزء الآية

(الشكل رقم ٢) بومة مسجد العين في منح .

الـ ١٦ من «سورة غافر» وهذا نصها : يميناً (الشكل رقم ٥) : ﴿**لمن الملك اليوم**﴾ ، يساراً (الشكل رقم ٦) : ﴿**لله الواحد القهار**﴾ .

والمحراب جُملةً مربّع الشكل يبلغ طوله ثلاثة أمتار ، أما عرضه فأقل من ذلك بقليل . إطاره الخارجي تحيط به من الداخل والخارج كتابات قرآنية كريمة ، منقوشة بخط كوفي رائع لا نراه مستعملا في العصور اللاحقة .

بين طرفي الاطار المذكور ومن اسفل اليمين حتى اسفل اليسار ، نقع على اثنين وعشرين ختما ، يحمل كل منها رسما زخرفيا مختلفا .

أما الكتابة الخارجية التي على إطار المحراب ، فتبدأ في أسفل الزاوية اليمنى وترتفع فوق جبهته ثم تنزل إلى أسفل الزاوية اليسرى ،